

الفصل السابع عشر

العباسيون

(تابع ما قبله)

١٧٠ — ١٩٨ هـ ، ٧٨٦ — ٨١٤ م

الرشيد والأمين

خلافة هرون الرشيد — أخلاقه — حكمه الزاهر — البرامكة —
استقلال أفريقيا الداني — شؤون الدولة في آسيا — ولاية العهد —
الأمين والمأمون — تقسيم الإمبراطورية — سقوط البرامكة ونكبتهم —
جان دارك العرب — الحروب البيزنطية — خيانة نيقفور —
هزيمته — عقد معاهدة جديدة — الدولة البيزنطية ونقضها شروط
المعاهدة — وفاة الرشيد — مبايعة الأمين بالخلافة — أخلاقه — إشتهاره
الحرب على المأمون — طاهر يهزم جيش الأمين — حصار بغداد —
مكة والمدينة يبايعان المأمون بالخلافة

خلافة هرون
الرشيد

ترجع هرون الرشيد على كرسى الخلافة على أثر وفاة أخيه طبقاً لوصية المهدي ، بعد أن كان «جعفر بن الهادي» قد تنازل عن جميع حقوقه في العرش . ولا مشاحة أن عهد الرشيد يعتبر ألمع عهود الحكم العربي في آسيا ، وأن قصص ألف ليلة وليلة قد أسبغت على هذا الخليفة المشهور ثوباً قشياً من الفتنة والخيال . وكان من عادته أن يجوس في جنح الظلام في شوارع بغداد وأزقتها ليتفقد أحوال الرعية وقيم العدل ، ويغيث الملهوف وينصف المظلوم . ولو أننا نزعنا عن الرجل الحقيقي ثوب الخيال لظل مع ذلك فتنة العصور ومثار إعجاب الأجيال كحاكم من أعظم حكام العالم شأنًا وأسماء مكانة ، إذ كن محافظاً على تكاليف الشرع ، عفيفاً زاهداً محسناً ورعاً ، حريصاً كل الحرص على أن يحيط نفسه بهالة من العظمة والجلال . ويمكننا أن نقول إن شخصيته الفذة أثرت تأثيراً

بليفاً في عقول العامة ، وسرت في الحياة الاجتماعية مسرى النار في المشيم حتى طبعها بطابعها الخاص ، كذلك كان جندياً ماهراً بالفطرة والممارسة ، وكثيراً ما قاد الجيوش بنفسه وتوغل في أنحاء الإمبراطورية ليهيمن على قمع الفتن والثورات . وقد كان علاوة على ذلك يزور المدن ليقف على أحوال الرعية وشؤونها ويفتش الحصون والممرات ، ولم يتردد قط في بذل قصارى الجهد في خدمة البلاد وتحصين الحدود وحمايتها من هجمات الأعداء ونشر الأمن في أنحاء الإمبراطورية ، فتمتع في ظله التجار وطلاب العلم والحجاج بنعمة الطمأنينة والعدل . وليس أبلغ في الدلالة على تعلق الرجل بشعبه وتقانيه في خدمته من تلك المساجد والكتليات والمدارس والمستشفيات والمنازل والطرق المعبدة والجسور وشبكة الجداول المبنوثة جميعها في أنحاء البلاد ، ولم يزه في تشجيع العلوم والآداب سوى ابنه «لأمون» ولكن ليس ثمة من يضارعه في متانة الخلق وحدة الذكاء . ومع أن أيام حكمه لم تخل من المساوىء التي تنجم عادة عن حصر السلطة المطلقة في شخص الحاكم — سوى عهد لأمون — فإن رفاهية الشعب وارتقاء المدنية وتقدم الفنون في عهده على نحو لم يسبق له مثيل يعوض كثيراً عن مساوىء الحكم المطلق .

البرامكة

ويعزى معظم شهرة «الرشيد» في الإدارة إلى كفاية الوزراء ومقدرة الموظفين الذين وثق بهم ووكل إليهم مهام الدولة خلال السبع عشر سنة الأولى من حكمه . وقد سبق أن أشرنا إلى المركز الممتاز الذي كان «خالد بن برمك» يتمتع به في عهد السفاح والمنصور ، وإلى انتخاب ابنه يحيى أمير أرمينيا ليكون مرشحاً للرشيد الذي ما إن بلغ سن الرشد وبيع بالخلافة حتى ولي مربيته السابق منصب الوزارة . وكان الرشيد يناديه : يا أبت ! دلالة على الحب والوفاء ويستشير في جميع الأمور ، كما منحه سلطة مطلقة لتصرف أمور الدولة بالحكمة والعدل ؛ وكان أبناء يحيى الأربعة : «الفضل» و «جعفر» و «موسى» و «محمد» على جانب عظيم من المقدرة السياسية والحكمة الإدارية العالية ، فولى الخليفة الفضل خراسان ثم مصر

ولما أخضع يحيى بن عبد الله^(١) الديلم استعمله عليها، وأسند إلى جعفر إمارة عدة ولايات، والمعروف أنه عند ما نشبت العصبية القبلية بين مضر وحير في الشام عهد إليه بإدارتها فقمع الفتنة وحكمها بنجاح عجيب. وعلى الجملة استطاعت هذه الأسرة المشهورة أن تحكم الإمبراطورية الإسلامية سبع عشرة سنة بكل نزاهة وإخلاص؛ ولكن تدهورها السريع وانهميار دعائم مجدها يفسر لنا ناحية من نواحي المؤامرات والدسائس التي كانت تحاك في ذلك العهد حول أصحاب الشأن وتكشف لنا عما تؤدي إليه الوشايات في الحكومات المستبدة.

ذكرنا فيما سبق أن بلاد التلمسان انفصلت عن الإمبراطورية العباسية وأن أمراء أفريقيا قاموا بعدة محاولات لإعادة احتلال غربي أفريقيا، ولكنهم كانوا يبيءون في كل مرة بالفشل الذريع، و بقيت أفريقيا في قبضة يزيد بن المهيم الملهبي حتى توفي سنة ١٧٠ هـ، ثم بدأت تعصف بها ريح الثورة حتى قيض لها أخوه «روح» الذي عينه الرشيد حاكما عليها سنة ١٧١ هـ، ولكنه توفي بعد مضي سبع سنين على حكمه. ويقول لنا المؤرخ العربي إنه لما تمرد الجيش على ابن «روح» وأعلن عصيانه سارع الرشيد إلى إرسال «الهرثمة» أحد القواد المشهورين لقمع الفتنة، فاستتبعت له الأمور وحكم البلاد نحواً من ثلاث سنوات وعلى أثر استقالته عين الرشيد مكانه عاملاً آخر برهن على عجزه عن الحكم. وقد كانت أفريقيا إلى ذلك الحين تستنفد معظم موارد الدولة فكانت مصر تدفع ١٠٠ ألف دينار سنوياً من مواردها الخاصة لسد عجز ميزانية حكومة أفريقيا، فعرض إبراهيم بن الأغلب على الرشيد استمداده لدفع ٤٠ ألف دينار سنوياً إلى حكومة بغداد إذا جعل حكمها وراثياً في أسرته، وقد أشار الهرثمة — الذي كان عليماً بشؤونها وبالصعوبات التي تواجهها الحكومة — على الخليفة بالقبول فأجابه في الحال إلى طلبه، وبذلك أصبحت أفريقيا إمارة شبه مستقلة.

بلاد أفريقيا
سنة ٧٨٦ —
٨١٤ م

أما في آسيا فكانت الأمصار فيها تدار بعزم وهمة على أسس ثابتة .
وفي سنة ١٧١ هـ ألحقت كابول وسنهار بالإمبراطورية العربية وامتدت
حدودها إلى كوش الهندوسية ، وفي نفس الوقت فصل الرشيد « سواحل » آسيا
الصفري عن الإمارة الأصلية وأطلق عليها اسم العواصم ، كما عين لها حاكما عسكريا
خاصا يقيم في طرسوس بكيليكييا .

وفي تلك الأثناء توفيت الخيزران أم الرشيد ، وبموتها فقد يحيى بن خالد
البرمكي عضداً قويا طالما أعانه على الاحتفاظ بنفوذه على الخليفة وشد أزره في
خدمة مولاه بالنزاهة والإخلاص ، وكان الرشيد قد أعاد إلى أمه في مستهل
حكمه جميع الامتيازات التي كانت تتمتع بها في عهد زوجها المهدي والتي حرما
منها الهادي ، فأصبح قصرها مثابة يقصدها الأشراف وأصحاب الخوانج ، ولكن
لم يلبث الرشيد بعد وفاتها بقليل أن أخذ الخاتم من يحيى وأودعه إلى الفضل بن
الربيع الذي بدأ نجمه يتألق في ذلك العهد .

وفي سنة ١٧٥ هـ وافق الرشيد بتأثير الملكة « زبيدة » وإلحاح أخيها
« عيسى بن جعفر » وتشجيع جميع أفراد الأسرة الهاشمية على أن يولى ابنه
محمداً — الذي لم يكن قد ناهز الخامسة بعد — ولاية العهد ولقبه بالأمين . كذلك
بايع بعد سبع سنين ابنه الآخر عبد الله المأمون ، ثم الابن الثالث القاسم ولقبه
بالمؤمن ، على أن تكون ولاية العهد لهم بالتتابع . وكان من المقرر أن يقتسم الأبناء
الثلاثة الإمبراطورية بعد وفاته ، فيكون المغرب للأمين ، والمشرق للمأمون ،
والجزيرة والعواصم للقاسم ، وكان « الرشيد » يعتمد على المأمون في تنفيذ الوصية
بحيث وكل إليه أمر عزل « القاسم » من ولاية العهد إن رأى ذلك مناسبا ؛
كذلك كان قد اختار جعفر بن يحيى لتأديب المأمون وثقيقه ، بينما وكل تربية
القاسم إلى ابن عمه « عبد الملك بن صالح » .

وفي سنة ١٨٦ هجرية حج « الرشيد » الحرمين الشريفين مستصحبا « الأمين »

١٧٠-١٩٨ هـ

شؤون آسيا

١٧٣ هـ —

٧٨٩ م

أخذ البيعة

لمحمد الأمين

بولاية العهد

١٧٥ هـ —

٧٩١ م

مبايعة المأمون

بولاية العهد

٧٨٦-٨١٤ م

٨٠٢ م

و « المأمون » ، وهنالك علق الوثيقتين بولاية العهد على الكعبة ، وقد كتب إحداها الأمين بخطه إذ أحس الرشيد منه القدر وعدم الثبات ، ولهذا رأى أن يربطه بأخطر المواثيق كي لا ينقض عهده مع أخيه .

جمع الست
زبيدة

كذلك حجت « الست زبيدة »^(١) في تلك السنة ؛ ويقال إنها عند ما شاهدت ما يعانیه أهل مكة من المشاق في الحصول على ماء الشرب أمرت بحفر عدة آبار^(٢) على نفقتها الخاصة ، ولا يزال اسمها يطلق على تلك الآبار إلى اليوم إحياء لذكرى تلك الزيارة .

١٨٣-٧٩٩م
ثورة الحزر

وفي سنة ١٨٣ هـ ثار أهل الحزر بتحريض من البيزنطيين الذين كانوا قد عمّدوا معهم شبه تحالف ، فأغاروا على أرمينيا من الشمال وعاثوا في البلاد وأعمالوا السيف في رقاب السكان الآمنين ومثلوا بهم على نحو لم يسبق له مثيل قط ، فأسرع الرشيد إلى إنفاذ حملات قوية على رأسها قائدان من أقدر قواده لتأديب هؤلاء البرابرة والانتقام منهم ، ويلوح أن الإجراءات التي اتخذها الجيش العربي مع المغيرين كانت بالغة حد القسوة والرعب .

وفي تلك السنة توفي الإمام « موسى الكاظم » ويقول ابن الأثير فيه : « إنه عرف بهذا اللقب لصبره ودمائه خلقه ومقابلته الشر بالإحسان » ، وكان محبوباً محترماً من جميع أهل المدينة ؛ بيد أن الرشيد ، وكان قد ورث عن جده الارتياب ، خشى أن يخرج عليه فأتى به إلى بغداد وسلمه إلى أخت « السندی ابن شاهر » تلك المرأة الفاضلة التي عاملت سجينها بالمعطف والاحترام ، وقد حدث مرتين أن سمح الرشيد لهذا الإمام الوديع بالرجوع إلى الحجاز ، ولكن

(١) قال الشيخ أبو الفرج بن الجوزي في كتاب الألقاب : « إنها سقت أهل مكة الماء بعد أن كانت الراوية عندهم بدينار ، وإنها أسالت الماء عمرة أميال بخط الجبال ونحت الصخر حتى غفلته من الحل إلى الحرم ، ولقبها جدها « أبو جعفر المنصور » زبيدة لبضاعتها ونضارتها . (المغرب)

(٢) يقال إن نفقات الحفر بلغت حوالى المليون ونصف المليون دينار .

شكوكه كانت في كلتا المرتين تتغلب على طيبة قلبه فيبقيه في الحبس حتى ساءت صحته ، وقد توفي في منزل سجنينه ، وخلفه ابنه على المسمى بالرضا ، ولعله كان أثقف أبناء عصره وأبعدهم شأواً في الفقه والآداب . وقد عرفت سنة ١٨٧ بذلك الحادث المشؤوم الذي لم يقلل من رونق عهد الرشيد فحسب ، بل ظل مشاراً لتأنيب ضميره وتعذيب وجدانه على جحود خدمات أسرة البرامكة الموهوبة التي أخلصت لعرش الخلافة طوال ١٧ سنة .

نكبة البرامكة
في سنة ٨٠٣ م

لاشك أن الشعب كان يتمتع في عهد تلك الأسرة السيئة الطالع بسعة العيش والرفاهية ، كما كثرت في أيامها أموال الدولة ، وازدادت الثروة الأهلية زيادة عظيمة ، وزهت الفنون ، وارتقى مستوى الحياة في كل مكان ، غير أن الشأو البعيد الذي بلغت في العظمة والجلال ، وما اشتهرت به من الإحسان جعلها معبودة الشعب مما ألب عليها الأعداء الذين عقدوا النية على التدمير بها . ويقال إن ثمة باعثاً آخر يعزى إليه نكبة البرامكة ؛ ولكن ابن خلدون محص تلك الإشاعات التي ذاعت في ذلك الحين ، ويظهر أن بعضها كان مختلفاً من أساسه لتبرير جحود الرشيد ونكرانه الجميل ؛ ودليل ذلك أن ابن خلدون سخر حكاية زواج جعفر بن يحيى من العباسة أخت الرشيد ، ويقول إن السبب الحقيقي لنكبتهم هو « أنهم كانوا قد قبضوا على ناصية الأمور كلها ، وتصرفوا بأموال الدولة دون رقيب ، حتى أصبح الرشيد يطلب المبالغ الصغيرة فلا يجدها إلا بإذن من الوزير » ، وهكذا عظم نفوذهم وذاعت شهرتهم ، وأصبحت مناصب الجيش الكبرى والإدارة وفقاً على أفراد أسرهم أو المقربين إليهم ، فتوجهت إليهم الأنظار ، وعنت لهم الرقاب ، وتعلقت بهم الآمال ، وغرروا الناس بالإحسان في كل مكان ، فمدوا ملء الأبصار والأفواه ، حتى أصبح لا حديث للناس غير حديثهم ، وتضاءل اسم الخليفة إزاء اسمهم ؛ ولا ريب أن عدوهم اللدود « الفضل ابن الربيع » انتهز هذه الفرصة وأخذ يحرك الساعة للسعى بهم عند الرشيد ،

وكان يساعده في ذلك بعض أقربائهم الذين نسوا أو تناسوا روابط الرحم وأوشاج الدم ، فأسروا إليه بأن أسرة يحيى تدبر مكيدة للقضاء على « بنى العباس » ، مؤثرين مصلحة العلويين على مصلحته ، فاشتبه فيهم الرشيد ، وظن فيهم شتى الظنون دون أن يرعى حرمة الوفاء ، أو يقدر جليل خدماتهم خلال تلك السنون الطوال . وفي ذات ليلة سيئة الحظ صمم الرشيد نهائياً على قتل جعفر وسجن يحيى وبقية أولاده : الفضل « ربيب الرشيد » ، وموسى ومحمد ، فأوغر إلى مسرور الذي كان يصحبه دائماً في جولاته الليلية بقتل « جعفر » ، وزج الآخرين في سجن الرقة ، كما صادر أموالهم ، ولكنه لم يعاملهم في بادئ الأمر بالشدة بل كان يسمح لهم بالتمتع ببعض أسباب الراحة ؛ غير أن وزيره الجديد أفضى إليه بأن « عبد الله بن صالح » عم المهدي يتآمر على خلعه طمعاً في الخلافة ، فلم يلبث الخليفة أن أمر بسجنه . وتقول لنا الرواية العربية إن هذا الوزير الحقود لم يكنف بالإيقاع بعبد الله فحسب ، بل راح يتهم البرامكة أيضاً بأنهم كانوا على علم بالمؤامرة رغم كونهم لم يسامحوا في تديبرها ، فاشتد سخط الرشيد عليهم ، وحرّمهم من العناية التي كانوا يلاقونها في بادئ الأمر . وهكذا أخذت هاته الأسرة البائسة التي تقلبت ردها من الزمن في أعطاف النعم تشرب كأس المذاب دهاقا ؛ فتوفي يحيى « الوزير الأمين » في السجن سنة ١٩٠ هـ ، ولحق به ابنه « الفضل » بعد ثلاث سنوات ؛ ويظهر أن موسى ومحمد كانا قد فكّ سراحهما بعد موت أبيهما . بيد أن عبد الملك بن صالح^(١) ظل في حبسه حتى أطلقه الأميين واستعمله على الشام ؛ وعند ما اعتلى المأمون عرش الخلافة رد إلى البرامكة أموالهم ، وأعاد إليهم امتيازاتهم .

٨٠٦ م

وفاة يحيى البرمكي

الحوارج

وفي تلك الأثناء أضرم الخوارج كعادتهم نار الثورة عدة مرات ، لكن الرشيد كان يجمع حركتهم كل مرة دون صعوبة تذكر ؛ وتمتاز إحدى هذه الفتن

(١) حفيد علي بن عبد الله بن العباس وابن عم المهدي .

بظهور فتاة عربية اسمها « ليلى » تزعمت حركة الثوار بعد مقتل أخيها « الوائد ابن طريف » أحد الزعماء الثائرين ، وتولت القيادة بنفسها ، واشتبكت مع جيش الرشيد فى معركتين دامتين حتى حملها أحد أقاربها على أن تلقى السلاح وتعود سيرتها الأولى ، وكانت وسيمة الطلعة ، رشيقة القوام ، تحفظ الشعر وتحميد نظمه إلى حد بعيد .

جان دارك
العربية

هدم أسوار
الموصل

كذلك جنح أهل الموصل إلى الثورة فى ذلك الحين ، فغضب عليهم الرشيد وأمر بهدم أسوار مدينتهم عقاباً لهم على الشغب والتمرد ، ولما كان يعلم حق العلم بما يكتنه أهل الشام له ولأسرته من المقت والبغضاء ، أخذ يثير العصبية القبلية من حين لآخر بين المضربين والحيرين كى يضعف بذلك شوكتهما ثم ينكل بهما أروع تنكيل بحجة توقيف الشغب وإطفاء لهيب الثورة .

الحروب مع
جيش الروم

غير أن حروب الرشيد مع الروم كانت أهم الحوادث التى وقعت خلال حكمه وأدعاها إلى الاهتمام ، إذ أنهم أدخلوا فى سنة ١٨٠ هـ بشروط المعاهدة التى كانت « أيربنى » قد عقدتها مع المهدي وأغاروا على البلاد الإسلامية ، ولكن جيش الخليفة هزمهم شر هزيمة فى معركة دموية رائدة ؛ ثم استولى على مدينة « مطاره » وأنقرة ، وأعاد احتلال قبرص بعد أن كانت قد تخلصت من نير العرب فى الثورة الأهلية ؛ كذلك أغار على جزيرة « كريت » ، ثم أعقب ذلك عقد اتفاقية جديدة تعهد فيها الروم بدفع الجزية وتبادل الأسرى ؛ وعندئذ بدت الدلائل واضحة جلية على أن هذا السلم ستطول مدته ، ولكن لم يمض سوى قليل حتى سملت الملكة « أيربنى » القاسية عينى ابنها قسطنطين السادس سنة ١٨٢ هـ ، ونادت بنفسها ملكة باسم « أوغستا » ، وقبضت بمساعدة عشيقها الحصى « أوتىوس » على أعنة الحكم خمس سنوات ، حتى ثار عليها الروم وخلصوها عن الملك ، ونصبوا وزيرها « نيكفورس »^(١) خلفاً لها ، « فنكث الملك

٧٩٢ ٨١٨٢ هـ

١٩٨-١٧٠

(١) ويسميه العرب « قففور » .

الجديد شروط الاتفاقية المعقودة بين المسلمين وأيريني»^(١) ، وأرسل إلى الرشيد رسالة بذينة يقول فيها : « من تقفور ملك الروم إلى هرون ملك العرب . أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مكان البيدق ، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثاله إليها ، لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن ، فإذا قرأت كتابي فأردد ما حصل قبلك من أموالها وافقد نفسك بما يقع به المصادرة لك وإلا فالسيف بيننا وبينك » . ويقول المؤرخ العربي : إن الرشيد عندما قرأ هذا الكتاب غضب غضباً شديداً بحيث لم يجرؤ أحد على النظر إليه أو التفوه بكلمة في حضرته ، كما تفرق جلساؤه وترك وزراؤه المجلس صامتين ، وما هي إلا أن طلب الخليفة قلماً ومحبرة وكتب على ظهر الكتاب ما يلي : « بسم الله الرحمن الرحيم . من هرون الرشيد أمير المؤمنين إلى تقفور كلب الروم . قد قرأت كتابك والجواب ما تراه دون أن تسمعه والسلام » . وقد بر الخليفة بوعده وشخص من يومه على رأس جيشه حتى وصل إلى « هرقله » إحدى قلاع الدولة البيزنطية ، حيث تقابل الفريقان فدارت بينهما معركة^(٢) رائعة أسفرت عن هزيمة الروم هزيمة منكرة (ولا يعزب عن البال أن خفة حركة المسلمين في ميدان القتال لم يكن ليعوقها شيء غير فنون الخداع وتوبة الأعداء) ، فتوسل « تقفور » إلى الخليفة أن يقبل الصلح على خراج أكثر من الخراج السابق يؤديه كل سنة ، فأجابه الخليفة إلى طلبه وعاد إلى « الرقة » . ولكن لم يكد يمضي طويل وقت حتى نقض « تقفور » العهد ظناً منه أن الخليفة قد يعمز عن الوصول إليه في مثل ذلك الموسم ، غير أن الخليفة لم يكد ينتهي إلى مسامحه هذا الخبر حتى كر راجعاً ، ولشد ما دهش تقفور من تلك المفاجأة ومن مخاطرة أمير المؤمنين في ذلك الشتاء القارس ، وتمكنه من عبور جبال طوروس

(١) ابن خلدون .

(٢) يسميها السيوطي « معركة فاصلة ونصراً مؤزرأ » ،

المكسوة بالثلوج ، وفي الحال أسقط في يده وفرّ من المعركة بعد أن أصيب بثلاثة جروح تاركا وراءه أشلاء ٤٠ ألف قتيل في الميدان^(١) . غير أنه عاد وطلب المواجهة فلم ير الخليفة بأساً في تلبية طلبه متخذاً هذه المرة جميع الاحتياطات الضرورية لمنع تكرّر هذا الغزو ، كتشييد القلاع وإقامة الحاميات القوية . بيد أن « نقفور » برغم كل هذه الإجراءات « ما كاد يبلغه خبر اشتباك العرب في القتال في ميدان آخر حتى نكث العهد ، ولكنه لم يلبث أن مئى كعادته بالتمثل المريع^(٢) » .

وفي سنة ١٨٩ هـ زحف « الرشيد » على الرى^(٣) ليؤدب أميرها الذى خرج عليه ، فاتهم إمبراطور الروم هذه الساحة وأغار على حدود الإمبراطورية العربية ، ولكن « القاسم بن الرشيد » — قائد الجيش العربى فى آسيا الصغرى فى ذلك الحين — صده عن زحفه وأوقع به شر إيقاع .

١٧٠-١٩٨ هـ . وبينما كان الرشيد مقبياً فى الرى حظى بمقابلته رؤساء الديلم وطبرستان فعاملهم بكل رعاية وإنصاف ، وبذلك اكتسب جهم ، ثم قتل راجعاً إلى بغداد فى طريقه إلى الرقة التى أصبحت فى ذلك الحين مقره الدائمى حيث يتمكن من مراقبة حركات الروم وعشائر الشمال وقبائل الشام . وقد ظن أنه يستطيع بعد ذلك الجهد المضى أن يخلد إلى الراحة والسكينة ، غير أن الروم لم يتيحوا له قط الفوز بأمنيته ، إذ لم تكد عشائر ماوراء النهر تعلن عصيانها حتى اجتاحت « نقفور » الحدود الإسلامية مرتكباً أروع ضروب السفك والتخريب ، فلم يستطع الرشيد

(١) غيون .

(٢) موير .

(٣) وهى الآن أطلال على مسافة خمسة كيلومترات من طهران ، تعرف باسم مشهد ، ولد فيها هرون الرشيد ، وهى وطن محمد بن زكريا الرازى الطبيب الذى اشتهر فى القرن الثالث الهجرى بالطب والكيمياء ، وغفر الدين الرازى صاحب مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير .
(المغرب)

السكوت على هذه الخيانة ، وفي الحال أناب المأمون عنه في « الرقة » وسار لتوه إلى الشمال على رأس جيش كبير . وقد تطورت الحرب هذه المرة إلى جهاد مقدس في سبيل المحافظة على السلم وإرغام الروم على احترام المواثيق والعهود ، فانضوى تحت لوائه ١٣٠ ألف جندي اكتسح بهم آسيا الصغرى حتى حدود « بيشنيا » شمالاً و « ميسيا » و « كاليا » غرباً ، وأخذت المدن تقدم إليه طاعتها الواحدة تلو الأخرى ، كما استولى « يزيد بن مخلد » على قونيا^(١) وأفسوس ببلاد ليديا ، وأخضع « شرحبيل بن معن » سكاليا ودبسه وماليكويا وسيدارابوليس واندراسوس ونيقيا^(٢) ؛ وأحاط الجيش الظافر بهرقل على البحر الأسود ثم استولى عليها بمد معركة رائعة مع تقفور . ولم يمض طويل وقت حتى طلب الروم — كهاتهم دائماً — الصفح ؛ ومن الغريب أن الخليفة نزل هذه المرة أيضاً على طلبهم ، ولو أنه أملى وقتئذ على الدولة البيزنطية شروطاً أشد وطأة واحتل القسطنطينية لاستقر السلم العالمي في ذلك الحين واستفادت المدينة فائدة عظيمة . بيد أنه اكتفى بمعاودة يوقعها « تقفور » وأشرف الإمبراطورية ، وهي تنص على زيادة الجزية التي شملت حتى الإمبراطور نفسه وسائر أفراد أسرته .

١٩٢ هـ ٨٠٨ م

وفي سنة ١٩٢ أخل الروم بالاتفاقية ثانية ، وتوغلوا في البلاد الإسلامية ، ويقول موير بهذا الصدد : « كانت نتيجة تلك الحروب الطاحنة كنتاج غيرها من الحروب : استعمار نار الكراهية الدينية » . وقد أرغمت الفتن التي نشبت في خراسان وقتئذ الخليفة على السفر إلى المشرق ، فأرجأ إزال العقاب بالروم إلى وقت آخر ، وعندئذ ترك « القاسم » في الرقة مع « خزيمة بن خازم » أحد القواد المشهورين وأناب عنه الأمين في بغداد ، ثم سار إلى المشرق يصحبه ابنه المأمون ، وما كاد

(١) مدينة في آسيا الصغرى ، وفيها قبر جلال الدين الرومي المعروف بمولانا والمنسوبة إليه الطريقة المولوية ، وكذلك قبر أفلاطون الحكيم . (المغرب) .

(٢) لم يذكر المؤرخون العرب أسماء هذه المدن وقد استقناها من تاريخ « ثيوفونيس » .

يصل إلى بلاد الفرس ويخترق سلسلة جبالها حتى أرسل أمامه ابنه المأمون إلى مرو على رأس فرقة من الجنود ، وأخذ هو يسير على مهل بالقوة الرئيسية . ولما بلغ قرية سندباد بالقرب من طوس^(١) عاوده مرضه القديم الذي كان يشكو منه منذ غادر الرقة ، فدعا من كان بعسكره من بني هاشم وخطبهم قائلاً : « إن كل مخلوق ميت ، وكل جديد بال ، وقد نزل بي ما ترون ، وأنا أوصيكم بثلاث : الحفظ لأمانتكم والنصيحة لأئمتكم ، واجتماع كلمتكم . وانظروا محمداً وعبد الله فمن بني منهما على صاحبه فردوه عن بنيه وقبحوا له بنيه ونكته » ، ثم وزع الأموال والضياع على جنوده وأتباعه ، ولم يلبث بعد ذلك إلا يومين حتى توفي في مقتبل العمر يوم السبت لأربعة خلون من جمادى الآخرة سنة ١٩٣ (٨٠٩م) بعد حكم زاهر مدته ٢٣ سنة وستة أشهر .

ومهما نمن النظر في « الرشيد » بمنظار النقد التاريخي نجده يحتل مكاناً أخلاعه وحكمه سامياً بين عظماء الملوك في العالم أجمع ، ولكن من الخطأ أن تقارن بين الحاضر والماضي ، أو أن تقيس أخلاق وعادات هذا الجيل بما فيه من مدنية وماتوصلنا إليه من رقي وتطور بصرامة الأخلاق والعادات التي كانت سائدة منذ عشرة قرون ؛ فإذا أخذنا كل ذلك بنظر الاعتبار نبين لنا أن نقائص الرشيد وشكوكه ومصرة أفعاله ليست إلا نتائج طبيعية للحكم الأتوقراطي .

وفي الواقع إن الصفات التي كان الرشيد متحلياً بها كضبط النفس والتفاني في خدمة الشعب والاهتمام بمصالح الأمة — برغم السلطة المطلقة التي كان يمارسها — تعتبر فضائل ترجحه على أنداده وقرنائه ، وتنهض دليلاً قوياً على نبوغه . وقد أجمع المؤرخون على أنه لم يتوان قط في أداء الواجب ، ولطالما قطع أنحاء

(١) عاصمة بلاد خراسان قديماً ، وفيها ولد الفردوسي الشاعر الفارسي المصهور ، وكذلك ولد فيها أبو حامد الفزالي ، ونصير الدين الطوسي الفلكي الرياضي الفيلسوف .
(المغرب)

الإمبراطورية من الشرق إلى الغرب ، ومن الشمال إلى الجنوب ، لإصلاح المساوىء الفاشية وقمع الفتن والقضاء على الأخطاء ، والاطلاع بنفسه على أحوال الرعية ؛ كما أقام للناس حججهم تسع مرات فى سنى حكمه ، فاكسب حب الرعية ، وبث فيهم روح الجنديّة ، وكان بلاطه ألمع بلاط فى ذلك الحين ، وكانت الشعراء والعلماء والحكماء يقدون عليه من كافة أنحاء المعمورة فيولهم جميعاً عطفه وتشجيعه ، كذلك كان أول من وضع الموسيقى تحت رعايته ، فارتقت فى ظله حتى أصبحت مهنة شريفة لا تقل شأنًا عن مثيلاتها من المهن الحرة الأخرى .

٧٨٦-٨١٤ م

وفى عهده كذلك طفقت المدرسة الحنفية تتطور حتى اكتسبت شكلها النظامى على أيدي علماء الدين وعلى رأسهم أبو يوسف قاضى القضاة ، ومع أن هذا المذهب يعرف بالمذهب الحنفى إلا أنه فى الواقع من وضع قاضى قضاة « هرون الرشيد » . وقد كان أبو يوسف يجمع إلى ليونة كرامر (Crammar) شره بيبكون (Baccn) ، ولا يعرف على وجه التحقيق لماذا لم يكتسب هذا المذهب يومئذ تلك الصرامة التى عرف بها فى المصور المتأخرة ، وهل يعمى ذلك إلى أنه كان لا يزال فى جدته وطفولته ، أولأنه لم يكن قد اصطدم بعد بالعناصر المعارضة . إن مدى إصرار أى مذهب فى فرض أحكامه يختلف باختلاف العناصر التى يتنازع معها ، وقد كان هذا النظام وقتئذ بالرغم من ازدياد الميل إلى الاجتهاد يتمتع بخاصية المرونة وقابلية التطور ، كما ثبت ذلك فى عدة ظروف ، بيد أن الاهتمام العظيم الذى أظهره الرشيد نحو العلماء والأهمية التى كان يعلقها على فتاويهم ، كل ذلك مهد السبيل إلى تأسيس سلطة من العلماء الدينيين الذين ازداد نفوذهم فى عهد الخلفاء الضعفاء^(١) .

العلوم والآداب

وسع الرشيد دائرة الترجمة التى كان جده المنصور قد أنشأها لنقل العلوم

(١) يلاحظ أننا حذفنا هنا عدة عبارات لظروف خاصة رغم أننا نؤثر المحافظة على الأصل . (المغرب)

من اللغات الأجنبية إلى العربية كما زاد عدد موظفيها ، وإن كانت لم تبلغ الشأو العظيم الذي بلغته في عصر المأمون . ومما هو جدير بالذكر أنه تأنق في عصره أنجم عدد من العلماء أمثال الأصمعي النحوي المشهور الذي كان الرشيد قد وكل إليه تنقيف أبنائه ، والشافعي أبو عبدالله بن إدريس ، وعيسى بن يونس ، وسفيان بن الصوري ، وإبراهيم الموصلي المغني المشهور ، وجبريل بن بختيشوع . ويقول ابن خلدون : إن الرشيد اقتنى أثر جده فيما عدا الشح والبخل إذ لم يكن يبره إنسان في الكرم والسخاء .

كان الخليفة نفسه شاعراً محباً للعلم مكرماً للشعراء ، وفي عهده افتتحت المكتبات مع الغرب والشرق الأقصى ، كذلك كان أول من استقبل السفراء من ملك الصين وشرلمان ؛ ولا تزال الساعة^(١) والهدايا الأخرى التي أهداها إلى الأخير موضع الدهشة ، ومثالاً حياً لما وصل إليه الفن الإسلامي في ذلك الحين من الإتقان والإبداع . وقد اشتهر أربع من أولاده في التاريخ وهم : محمد الأمين ، وعبد الله المأمون ، والقاسم المؤتمن ، وأبو إسحق محمد المعتصم .

ولما توفى الرشيد كان الأمين ببغداد والمأمون بمرج والقياس بفسرين ، والست زبيدة في الرقة ، فبعث صاحب البريد خبر وفاة الخليفة إلى بغداد ، وفي اليوم التالي أرسل « صالح » الذي كان حاضراً وفاة أبيه خاتم الخلافة وقضيب النبي (ص) والبردة إلى أخيه الأمين الذي توجه في الحال من قصر الخلد ، حيث كان يقيم ، إلى قصر الخلافة ، فصلى بالناس وألقى الخطبة التقليدية ، وتقبل البيعة من قواد الجيش والأشراف والموظفين ، كذلك كان المأمون قد أرسل كتاباً إلى أخيه بالتهنئة مع بعض الهدايا .

(١) صنت تلك الساعة بدقة فنية عظيمة ، بحيث كانت تدق عند نهاية كل ساعة زمنية بواسطة كرات تنساق على لوح نحاسي ، وكان يخرج عدد من التماثيل الحياطة حسب عدد الدقات من باب يفتح فجأة ، وبعد أن يخفئ الصوت كانت تعود أدراجها ويقفل الباب وراءها .

محمد الأمين
١٩٣-١٩٨ م
٨٠٩-٨١٣ م

وحالما أذيع خبر وفاة الخليفة أسرع الست زبيدة إلى بغداد . وتقول لنا الرواية إن ابنها الأمين خف إلى استقبالها في الأنبار بمنتهى الأبهة والجلال ، وأنزلها معه في قصر الخلافة حيث ظلت تعيش بجانبه إلى أن لاقى حتفه .

أخلاق الأمين
والمأمون

حقيق بنا في هذه المرحلة أن نقارن بين أخلاق الأخوين الأمين والمأمون اللذين لم يلبثا أن تصرمت بينهما جبال الود والإخاء ، وأضر الواحد للآخر البغض والعداء ؛ وإنا إذا استقصينا نشأتها وجدنا أنهما قد تلقيا العلم على أيدي أشهر علماء العصر ، فتربى الأمين في حجر أمه ، وترعرع في كنف خاله . أما المأمون ، الذي توفيت أمه الفارسية وهو لا يزال طفلا ، فقد اعتنى به تهندي جعفر البرمكي .

٨١٩٨-١٧٠

استمد الأخوان علومهما وثقافتهما من معين واحد ، فدرسا العلوم الشائعة في عصرهما ، وهي البلاغة والشعر والتاريخ والفقه والحديث ؛ ولكنهما من حيث الاستعداد العقلي كانا مختلفان الواحد عن الآخر اختلافا بينا ، إذ بينما كان المأمون يستوعب كل ما يلقى عليه من الدرس ويلتزمه التهاما ، كان الأمين محبا للهو ، لا يتأثر بما يلقى عليه إلا تأثيراً سطحياً ؛ بيد أن كليهما أنقنا — برغم ذلك — الخطابة التي كانت تعتبر من أميز ميزات الأمير العربي ؛ وكان المأمون فوق ذلك متفهماً في علوم الدين ، ملماً بأصول التفسير والحديث ، حافظاً للقرآن الكريم ، يجيد تلاوته ويفهم معانيه . وكان الرشيد بثاقب فكره وبعد نظره يدرك الفرق جلياً بين خلقيهما وتفاوت صفتيهما ، ولعله توقع نتيجة الإجراءات التي اتخذها والعناية التي رعاها بها ، فأشهد الحاضرين على أن يكون الجيش الذي أرسله إلى خراسان وما معه من مال وسلاح وآلات تحت إمرة المأمون ، يتصرف فيها كيف شاء للدفاع عن الولايات الشرقية ، كما منح الأمين الكنوز العظيمة التي خلفها له في بغداد ؛ ولكن الدلائل كانت تنذر بأن الأمين قد بيت لأخيه وعقد النية على الحنث بميثاق أبيه .

خيانة الفضل
ابن الربيع

وعلى أثر وفاة الرشيد انحاز الفضل بن الربيع الذي كان لا يزال في منصب الوزارة منذ نكبة البرامكة إلى الأمين، إذ كان يعرف فيه ضعف الإرادة والاستهتار بالحكم، ولا سيما أنه كان يطمح من وراء ذلك إلى القبض على ناصية الأمور، فأقنع الجنود بنكث العهد التي كانوا قد قطعوها على أنفسهم للمأمون والعودة معه على جناح السرعة إلى العاصمة وعرض طاعتهم على الأمين، فلما وفد «الفضل» على رأس الجيش ومعه الأموال التي اغتصبها من المأمون فرح به الأمين فرحاً عظيماً، وقلده منصب الوزارة كما وزع مرتبات سنتين مقدماً على الجنود.

أما المأمون فلم يلبث أن أنى نفسه بعد خيانة الفضل بن الربيع مجرداً من القوة والمال، وتخرج موقفه إلى درجة تدعو إلى العطف والثناء، وبخاصة عندما بلغه أن زعماء ولايته وشيوخها بدأوا يقلبون له ظهر الحن، ويعلمون تمردهم وعصيانهم، فشمّر عن ساعد الجدل وصرف همه إلى تهدئة خواطرم وتسكين ثورتهم بالترغيب تارة والحسنى أخرى؛ ومن حسن طالع أنه حصل خلال تلك الأزمة على معاضدة مستشاريه الأكفاء الذين هرعوا إلى جانبه يحضونه النصيح وعلى رأسهم «الفضل بن سهل»، ذلك الفارسي المشهور بسعة الحيلة وشدة الدهاء. وكان من أعوانه أيضاً «هرثمة» المشهور، وطاهر بن الحسين الخزازي القائد الطموح. ويقال إن المأمون عامل أشراف الولاية بالرعاية والاحترام وخفض الضرائب على اختلافها، فحمدوا له عطفه وبره وأعلنوا طاعتهم له، والتفوا حوله باعتباره أنه ابن شقيقتهم، ومما يجلب الثناء عليه سلوكه الودى البعيد عن كل ريبة أثناء الخلاف بينه وبين أخيه.

نبير الأمين

وفيما كان المأمون منهمكاً في تنظيم شؤون الولاية الوحيدة التي بقيت محافظة على ولائها له، كان الأمين يسير بالبلاد سراعاً إلى الخراب والدمار، ويبدد الأموال ذات اليمين وذات الشمال في سبيل الحصول على ولاء الجنود، وجلب المضحكين

من جميع أنحاء الأمصار ، وشراء الجوارى الفاتنات والمغنيات الحسنات .
كذلك يقال إنه زاد في عدد الحصيان الذين كانت تزخر بهم الدولة البيزنطية
ويستخدمهم نبلاء روما الجديدة ، ليس في حراسة النساء بحسب ، بل في إدارة
شؤون الدولة أيضاً . ويقول لنا المؤرخون إنه ذاع في عهده ضرب جديد من اللهو
وهو عبارة عن حفلات رقص كان الأمين يديرها بنفسه في الأبهاء الملكية ،
وكانت كل حلقة تتألف من مائة فتاة من أرشق الفتيات وأوفرهن جمالا ،
وكن يظهرن في تلك الليالي الساهرة بأبهى الحلل المشاة بالقصب والمرصعة
بالجواهر الثمينة ، ومما كان يثير السرور والإعجاب أنهن كن يرقصن مجتمعات
على أنغام الموسيقى الشجية بحركات إيقاعية ، ويتميلن في بطء رانحات غاديات
ملوحات بسعف النخيل ، منعنيات تارة ومنتصبات أخرى في دوائر تشمع
عليهن الأضواء الساطعة . كذلك أمر الأمين بصنع خمس حراقات في دجلة على
هيئة الأسد والعقاب والحية والفرس والفيل . وكان يقضى جل أوقاته في معاورة
الخمر والاستمتاع بضروب اللهو وارتشاف كوؤس الحب المترعة ، تطوقه الجوارى
الحسنات وتحيط به المغنيات الجميلات ، حتى عزفت نفسه عن السلطة وترك
شؤون الدولة للفضل بن الربيع يتصرف فيها كيف شاء له الجشع البالغ حد الإفراط .
وفي تلك الأثناء قتل « تقفور » في الحروب الطاحنة التي دارت بين الروم
والبغار ، وخلفه ابنه « استبرق » ثم ولى الحكم من بعده ميخائيل بن جرجس
الذى تزوج من أخت الاستبرق ، وبعد قليل تنازل عن العرش للقائد « ليو »
الذى لم يكذب نادى بنفسه ملكا على الروم حتى نقض شروط المعاهدة مع المسلمين
وأغار على الحدود ، في حين كان الأمين غارقاً في لهوه وعبهه دون أن يجد لنفسه
متسعاً من الوقت للوقوف على أخطاء الحكام وكبار موظفي الدولة . وبدلاً من
أن يستخدم نشاطه ويستغل أموال الدولة في سبيل الدفاع عن الإمبراطورية ،
أخذ يناصب أخاه العداوة ويعلن عليه حرباً شعواء .

أما الفضل بن الربيع وزير الأمين فكان يخشى مغبة عمله لو آل الأمر إلى المأمون ، ولهذا أخذ يحرض الأمين على خلع أخيه من ولاية العهد ، فلم يعمه الخليفة أذناً صاغية في بادي الأمر ، ولكنه إزاء إلحاح وزيره وأحد المستشارين المسمى على بن عيسى بن ماهان — الذي لم يكن ليقبل عن الفضل لؤماً وفاقاً — قبل مشورتهما وأقدم على اتخاذ تلك الخطوة المشؤومة . وفي الحال أرسل في طلب المأمون الذي اعتذر عن الحجى بقوله : إن حالة الإمارة التي يحكمها لا تسمح له بتركها ، غير أن الخليفة استاء من هذا الرفض وأمر بخلمه ونهى عن ذكر اسمه على المنابر يوم الجمعة ؛ كما عزل القاسم من الإمارة التي كان الرشيد قد استعمله عليها .

الخلاف بين
الأمين والمأمون
— ١٩٥ هـ —
٨١١ م

ويظهر أن الأمين لم يكتف بتلك الإجراءات الجائرة التي اتخذها ضد أخويه ، إذ بايع ابنه الطفل « موسى » بولاية العهد ولقبه « بالناطق بالحق » ومن بعده ابنه الثاني ولقبه « بالقائم بالحق » .

فأجاب المأمون على عزله من ولاية العهد بضرب حصار شديد على الحدود الغربية ، فلم يسمح لأى إنسان كائناً من كان بالدخول إلى ولايته دون فحصه واستجوابه ، خوفاً من أن تنسرب إليها الكتب والدعايات المضرة التي قد تمحرض الأهالي على التمرد والمصيان ، وبهذه التدابير اتسمت شقة الخلاف بين الأخوين ، فأرسل الأمين في طلب الميثاقين الملقين بالكعبة ومزقهما ، ثم بمث بخمسين ألف جندي بقيادة على بن عيسى بن ماهان إلى الرى حيث اقتتل الفريقان في موقعة دامية ؛ وكان على رأس جيش المأمون طاهر بن الحسين الذي أوقع بمجيش خصمه شرايقاع ، ومزقه كل ممزق بعد مقتل قائده على بن عيسى ، فالتحق على أثر ذلك عدد كبير من جنود الأمين بطاهر بن الحسين ، الذي طير في الحال خبر انتصاره إلى المأمون بمبارة موجزة تشبه عبارة « يوليوس قيصر » التي بثت بها عقب انتصاره إلى مجلس الشيوخ الروماني قائلاً : كتبت إليك ورأس « على

ابن عيسى « في حجرى وخاتمه في يدى ، وجنوده تحت إمرتى . ويقال إن الرسول قطع تلك المسافة البالغة ٧٥٠ ميلا في ثلاثة أيام .

ولما انتهى خبر هذا الانتصار الباهر إلى مسامع الفضل بن الربيع شعر بزوال سلطته ؛ وفي الحال صادر مبلغ المائة ألف درهم التى كان الرشيد قد وهبها للمأمون قبل وفاته كما صادر جميع أملاك المأمون الخاصة التى كان قد تركها فى عهدة نوفل مربي الأخوين : الأمين والمأمون ، الأمر الذى حدا بالشعراء إلى هجو الخليفة الضعيف ووزيره الجشع . ويقال إن بطانة الأمين بعد أن أعيتها الحيلة اقترحت عليه أن يأخذ أولاد أخيه رهائن حتى يسلم نفسه أو يفتك بهم ؛ بيد أن الخليفة لم يستهجن هذا رأى الخزى فحسب ، بل عاقب الذين اجتروا على إبدائه بالجس . ١٧٠-١٩٨ هـ

ويقال إن الأمين رأى انقذاً للموقف أن يبعث بعدة جيوش من بغداد الواحد تلو الآخر ، ولكنها جميعاً كانت تلاقى نفس المصير ، فاستطاع طاهر بن الحسين بعد إخضاع البقاع الجبلية أن يستولى على قزوين ، ثم سار فى طريقه مكتسحاً أمامه كل مقاومة حتى غشى حلوان واتخذها مقراً لجيشه ، ثم توجه صوب الأهواز ، بينما زحف « هرثمة » نحو الشمال .

وقد بايع أهل فارس « المأمون » بالخلافة ، وعلى أثر ذلك تقلد الفضل بن سهل الإدارة العليا من حدود التبت إلى هذان ، ومن المحيط الهندى حتى بحر قزوين ؛ فجمع بذلك بين الرئاستين رئاسة الحرب ورئاسة الخراج ، كما أسند إلى « على بن هشام » منصب وزارة الحرب ، وولى شؤون إدارة الدخل « نعيم بن كاظم » مع « حسن بن سهل » كمساعد له .

مبايعة المأمون
بالخلافة

و بينما كانت تلك الحوادث تقع سراعا فى الشرق أضرم «على بن عبد الله»

أحد أحفاد معاوية^(١) الأول نار الثورة مدعياً لنفسه بالخلافة ، كذلك ظهر له منافس آخر هو حفيد « مسلمة » ؛ بيد أن أصحاب هذين الثائرين وأتباعهما تخلوا عنهما ، وتفرقوا من حولهما كما اختفى صاحباً الدعوة بالسرعة التي ظهر بها .

لم يمض سوى قليل حتى استولى قائد « المأمون » على الأهواز واليمامة والبحرين وعمان ، ثم توغل شمالاً واحتل واسط فأثرت سرعة انتقاله وخضوع الموالي الواقعة على الساحل تأثيراً قوياً على البلدان الأخرى ، إذ اعترف « العباس ابن المهدي » عامل الأمين على الكوفة بسلطة المأمون ، وحذا حذوه « النصور بن المهدي » عامل البصرة ، ثم « داود بن عيسى »^(٢) أمير الحرمين ، فعاملهم المأمون جميعاً بكل رعاية وعطف وأقرهم في مناصبهم . ومن ثم زحف « طاهر بن الحسين » نحو الشمال بعد أن استولى على المدائن التي كانت لا تزال موقفاً حريباً هاماً ، وظل يواصل سيره متجهاً نحو العاصمة . وفي الوقت نفسه كان « السيب بن زهير » قد وصل إلى بغداد فاشترك القواد الثلاثة في حصار المدينة حيث عسكر طاهر بباب الأنبار ، ونزل هرثمة نهريين إحدى فتحات النهر ، واستمر الحصار عدة أشهر استنفد فيها الأمين جميع أموال الدولة التي كان يوزعها على جنوده وبطانته ذات اليمين وذات الشمال ، ثم أمر بضرب آنية الذهب والفضة دنانير ودرام ووزعها عليهم . ويقال إن بغداد أصيبت في أثناء ذلك الحصار بأضرار جمة ، إذ أخذ الفريقان المتحاربان يهدمان القصور والدور الماسرة التي كانت تعترض حركتهما الحربية ، فحل بنصف المدينة الخراب وتداعى بنيانه ، واشتدت نكبة السكان كما عظمت محنتهم حتى بلغت درجة لا تطاق ؛ فأخذ الأشراف والأعيان ينفذون من حول الأمين ، غير أن العامة وزعانف المدينة استمروا في كفاحهم

حصار بغداد
٨١٩٧ هـ
٨١٣ م

(١) هو علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية ، المعروف بالسفياني وأمه نعيمة حفيدة العباس بن علي الذي قتل مع الحسين في موثمة كربلاء .

(٢) هو عيسى الذي حرمه النصور من ولاية المهدي .

١٧٠-١٩٨ هـ
 بإصرار غريب ؛ ولكن ذلك لم يفده فتيلًا ، إذ اضطر هو وأمه وأمرته إلى
 الاعتصام بالمنصورة على الضفة الغربية من النهر ، وهناك تجمعت عليه الإحن
 والشدائد . ولما تخرج الموقف اقترح عليه بعض مستشاريه القلائل الذين ظلوا
 بجانبه أن يفر إلى الشام ، غير أنه مال إلى التسليم على شرط أن يؤخذ إلى أخيه
 المأمون الذي كان يثق بحبه له ، وبدأت تسير المفاوضات على هذا الأساس ، غير
 أن « طاهرًا » أصر على أن يأسره ؛ على حين كان الخليفة المنكود الحظ يأبى
 بشدة أن يسلم نفسه لذلك الأعور البغيض الذي لا يثق به ، ولكنه وافق نهائيًا
 على التسليم إلى هرثمة أحد قواد أبيه الأمانة ، وقد تم الاتفاق بالفعل على أن
 يخرج الأمين إلى هرثمة ، بينما يدفع الخاتم والقضيب والبردة إلى « طاهر »
 فينال القائدان بذلك فخر إخضاع الخليفة وإذلاله . فلما خرج الأمين من قصره
 يريد التسليم استقبله هرثمة بكل احترام ورعاية ، وأمر الملاحين أن يسيرا بهما
 على جناح السرعة إلى معسكره ، ولكن الحراسة ما كادت تبعد قليلاً عن
 الشاطئ حتى رماها بعض جنود الفرس الأفظاظ بالحجارة الضخمة فانكسرت
 وانكفأت بهم ، وكاد هرثمة يلتقي حتفه غرقاً لو لم ينقذه أحد الملاحين ، فقبض
 بعض الجنود على كلا الأمين وقاضى المدينة وحملوها إلى إحدى القلاع المجاورة .
 وكان الأمين يرتعد من شدة البرد فغطاه القاضى بعباءته . وفي منتصف الليل
 فتح رهنط من الفرس باب الغرفة وهجموا على الأمين ، فحاول الدفاع عن نفسه بالوسادة
 التي كانت بيده ، ولكنهم ذبحوه ونصبوا رأسه في صباح اليوم التالي على
 أسوار بغداد .

مقتل الأمين
 ٢٣ محرم ١٩٨ هـ
 ٨١٤ م

ولما علم المأمون بمقتل أخيه حزن حزناً شديداً ، إذ لم يكن يتوقع قط أن
 يؤدي بهما الخلاف إلى هذه النتيجة الحزنة ، فأمر بمعاينة القتلة الأمين ، ولأجل
 أن يعوض عن هذا الرزء الفادح تبني أولاد أخيه ، كما عهد إلى الست زبيدة

أمر تربيتهم ، ولما أف بلغوا سن الرشد زوجهم من بناته . وقد مات
أحدهم في ريق صباه ، ومما يذكر للمأمون بالشكر أنه أبقى لعائلة الأمين جميع
أموالهم وملكهم .
وهكذا قتل الأمين في الثامنة والعشرين من عمره ، وكانت مدة خلافته
المخوفة بالأهوال والاضطرابات أربع سنوات وثمانية أشهر .